« جُنَّت ليلى»

يزعمون كذباً أن قيساً قد مات ، بل قتل !!؟ .

نعم قتل بيديها هاتين الناعمتى الإهاب ، بجسدها النشوان، ولثماتها المسكرة ، ولكأنما هى أفعى رقطاء استدرجت فريستها البائسة إلى أخشن لحود الحب ، هيهات ثم هيهات ، فعندما بصق الشيطان كنت أنا هذه البصقة !.

لازالت صورتها الحالمة تنساب كالحرير إلى مخدع الخيال ، تراقصنى ، تشاربنى ، وتسكب من كأس اللذة فى حلقى ، تتصاعد الحمم مع أنفاسى ، أراها بعيني قتيل ولهان ، تلملم وشاحها الذهبى ، وتستعد للرحيل كأميرة أسطورية يكلل رأسها الغار فى موكب الغروب الأخير .

أشياء تعودت أن أُلقيها إلى محمل عقلى ليدفنها إلى الأبد فى سويداء قلبى المكلوم ، من هذه الأشياء قبرى الذى هو بيتى ، وطعامى الذى هو فتات السادة زوار ونزلاء القبور أحياءً وأمواتاً، وحبى.....

فعندما تشيع الظلمة ، وتستأسد الهبوب ، ويجن جنون الشجر الأجرد على الرُبَّى انزوى ، وألوذ بعيني إلى السماء ، ماذنبى ، بل

ما ذنبها أن تعلقتُ بنجمة شاردة فى السماء ، كان ذلك فى صباح أول يوم لىّ فى الجامعة ، فيما كنت أُلِّح على قدمي أن تثبتا ، وتكفا عن الارتعاش من تحتى حتى أقوى على مواجهة عمالقة المدينة ، الشداد، الطوال ، العراض، الأثرياء ، وذوى النظرات الساحقة ، أحد أصدقائى من سكان الدمن العفنة قال ساخراً :

- أنت لص حقير ضل طريقه خطأً إلى الخزنة الرئيسة فى البنك المركزى ، أنت كلب ضال ساقه القدر إلى مائدة عامرة بالأطايب واللحوم الشهية ، ومتع ولذائذ حظك منها لايتجاوز حدود النظرة المتحسرة ، حقاً يالها من حياة غريبة وأنت أغرب مافيها ، وأنت ، وأنت .....

أنت ، هو أنا بشحمى ولحمى ، الطول مائة وثمانى وخمسون سنتيمتراً ، زلق الكتفين ، الشعر أشقر محروق ، اللون أسمر محموش ، أما العينان فصفراوين مثل الكركم ، وحادتين كعيني الصقر ، وميزتى الوحيدة فتكمن فى نظرة أى أم إلى ابنها ، وأنه فى عينيها كالغزال لا كالقرد الأجرب مثلى ، عادة مايمسح طرف حذاءه البالى فى ثنية سرواله من الخلف خلسة حتى لايراه أحد، ولكنها رأتنى ، وضحكت طويلاً ، رحت أتصبب عرقاً من فرط الخجل ، كتمت أنفاسى ، وتسمرت طويلاً أمامها ، ولم أحر جواباً سريعاً لسؤالها :

- هل أنت طالب معنا هنا فى الكلية ؟!.

- أ .أ .أ .أجل .

- أمر عجيب !.

- الكلية سقطت ولمت حثالة الخلق أليس كذلك ؟.

- آسفة ، ولكننى لم أنطق بكلمة .

- بل انتظرها مثلما تنتظرين أنتِ سائق سيارتك الخصوصى مثل كل يوم .

- أنت تراقبنى إذن .

- العين تثقب الحجر لمجرد اختلاس نظرة إلى من تحب .

قلتها فى اللحظة التى كانت تفصل بين تلويحة يدها من نافذة السيارة الفارهة وبينى عشرات من الأمتار ، وعندما رحت ألوح لها بيدى أنا الآخر ضج العالم من حولى بالضحك .

شبق مجنون يسكن أعضائى ، وحلم متهاو يثقل رأسى ، زحام المدينة ، ونظرات الغرور العجلى ، وأنفاس المراهقات شادات الشعور كرهاً ورغباً من أعمق عمائق صبيان السعيدية المراهقين، وصاحبنا يهيم شارداً على غير هدى ، يبحث فى تلكم السماء المتوهجة بشمس العصارى عن تلكم النجمة اللامعة ، وأكاد أشج رأسى من كثرة الخبط بصفحة يدى على جبهتى المخددة :

- هل يكون العبد عاشقاً لسيدته ، هل يجرؤ ابن الجارية السوداء على مجرد التلصص سراً من خصاص الباب على أميرته الساحرة الجمال !.

أصرخ بصوت عالٍ :

- عفراء..راء ..اء..ء..ء..

عفراء امرأة عجوز حمقاء، من الحبش شديدى السواد ، تسكن خرابة الشيطان ، قالت لىّ أنها جلبت أبى من بطن أمه عن طريق عفراء هذى ، ضحكت طويلاً وأنا أغمغم كالمسطول بكلمات ثقال على صدرى :

- وبالسحر الأسود أيضاً يمكنها أن تجلب القمر المنير من عليائه إلى قاع المحيط فى سفوله الكئيب .

ألطم وجه الحظ السئ بقبضتى الفولاذية ، أصرخ فى الخلاء الرحب ويردد الصدى الأسير لسلطان صرخاتى المجنونة، ورغبتى الجامحة :

- عفراء..راء ..اء..ء..ء..

ويتجمد الصمت من حولى ويصبح دخاناً نز من سراب ، لم تمحه بعد من عينى إشراقة الصباح ، وصورتها الرائعة خطارة فى النهى تراودنى عن نفسى ، وقد شرعت تمد ساقاً لفاء خارج

سيارتها الخيالية اللون بعد ساق ، تستوى خارجها واقفة ، وبسرعة البرق الخاطف أطير إليها لاهثاً ، أغلق باب السيارة كخادم مطيع ثم نزق ، استوى قبالتها مبهوراً :

- آيا جينون لنتنازل لهذه الآلهة المولودة عن جائزة الجمال كلها [1].

نظرت لىّ مندهشة جداً ثم ابتسمت قائلة برقة وعذوبة متناهيتين :

- أشكرك ، أشكرك جداً .
- وهأنذا أقول لآلهة الجمال الأسطورى كلها آيا أفروديت جمالك للصخور الجُماد ، وجمال أميرتى الذهبية ليس مثله جمال .
- اللّه ، أنت شاعر ! .
- عندما أراكِ فقط .
- ومنافق أيضاً .

راحت تضحك كالنسمة الطروب ، تترقرق عليها نظراتى السكرى ، وتخلع عليها غلالة الحب اللبنية ، تنصرف قائلة بأسطورية متوهجة :

- الوداع ياعاشقى .

أنتبه أمامها ، تكاد تصدمنى نظرات الإعجاب الشاردة إليها من كل حدب وصوب ، بالقرب منى أسمعهما يتناغيان ، يتشاحنان، يقرع صوته نبضات قلبى المهيض :

- كلنا قيس ، ولكن ليس إلى الأبد مجانين ليلانا ، لن يقتلنى فراقك ، لن يدمرنى جفاؤك ، لن يسحقنى بعادك .

أضحك منه أمر الضحك :

- هات تُباد يشهد ويحكم [٢].

ساعتئذ يعز الحب ، وتشح القلوب ، واندماه ، ألملم أشلائى من الردى ، وأتوجع بآلام ليست فى جسدى ، لست أدرى علام كل هذا ، أو إلام ستحملنى قدماى ، مضى أسبوعان والحال كما هى الحال ، متغيبة عن الحضور إلى الكلية فى أهم مرحلة من مراحلها الدراسية ، أبحث عنها فى كل مكان كالمجنون الذى طار صوابه مع الريح ، أصرخ بصوت عالٍ كهزيم الرعد :

- عفراء..راء ..اء..ء..ء..

أين حبيبتى البتول؟!.

لحظتئذ قرر الصعلوك أن يقتحم قصر الأميرة الساحرة وليكن مايكون ، لايهم من الباب ، فالأبواب ليست قدرنا نحن

الصعاليك ، أتسلل خلسة إلى خدرها البللورى الشفيف على جسور من النار واللعنات :

- كيف دخلت إلى هنا ، من أنت؟!.

قالتها مرعوبة وقد هبت واقفة من فراشها الوثير كالصاعقة.

- ألاتعرفيننى ؟!.

تحدق فى طويلاً كالمخدرة ، أدنو منها هامساً :

- أنا الشاعر ، زميلك فى الكلية ، و.....

تقاطعنى مبتعدة إلى الوراء :

- آه ، وماذا تريد ؟.

- فقط كنت أريد أن أطمئن عليكِ .

- السائق الغبى دهس هرة صغيرة سوداء لاحول لها ولاقوة بسيارتى .

قلت باسماً ومندهشاً فى ذات الوقت :

- يالرقتك الشديدة ، ولكن أسبوعين مدة طويلة ، وكفيلة جداً لأن ينسى الإنسان نفسه وأمه وأبيه لامجرد هريرة شوارع متشردة !.

شـردت طويـلاً وقـد بـدا عليهـا الإعيـاء الشـديد، ثـم أردفـت قائلـة بوهـن :

- هـذه طبيعتـى ، كمـا أن قـوة مـا خفيـة تشـدنى ، وتعيـث خرابـاً فـى أعمـق أعماقـى ولا أدرى لهـا كنهـاً .
- هيه.
- خذاه إلـى السجن .

قالهـا بصـوت أجـش والشـرر يتطايـر مـن كلتـا عينيـه الداميتـين التفـت ناحيتهـا ثـم قـال بصـوت شـكاء لـم يخـل مـن نبـرة أدب مصطنعـة :

- معـذرة دخولنـا هكـذا ياآنسـتى الرقيقـة ، الصعلـوك الملعـون غافلنـا ونحـن نيـام ودخـل متسـللاً إلـى حجرتـك .

ثم نحوهما أدار وجهه الكئيب آمراً إيِّاهما بحرقة الفاشل :

- قلت خذاه إلى السجن فوراً يا غبيين .
- بل دعوه يذهب إلى حال سبيله .
- ولكن ياحبيبتى.....
- قلت دعوه .

قالتها برقة مثل إقحوانة تتأهب للقفول ، ويردد الصدى فى حناياى صوتها الرخيم :

- الوداع ياعاشقى .

وتنثر الذكرى صورة الأمس ، يوم مزقتنى أنياب كانت ثم لانت على شفتى ذات يوم فى الخيال ، أواه وتبطش بىّ أياد لاحول لها ولاقوة ، تمزقنى ، وتلقى بىّ ككلب أجرب إلى عرض الطريق ، وقيس المجنون يجرى مولولاً على جبل تُباد حتى أصبح على شفا الهاوية السحيقة ، لقد تآلف قلبه مع المستحيل عينه ، فى عالم وهمى من الأضداد ، أيفعلها ؟، قربان جد سخيف!.

وعفراء لم تزل فى مخبئها ترغى وتزبد ، تلعن وتقسم ، تتغنى بأساطيرها التى لايصدقها العقل ، وتدق الوشم على صدرى ، وسحب الدخان تغمرنا تماماً ، ألمح أمى اليائسة زاوية كالشبح ، تند عنها ارتعاشة كلما أطلقتُ آهة ألم بين يدي عفراء السوداوين، وأبى بالقرب منها يمسح ذقنه بأصابع يده ، ويفتل شاربه الكث بين الفينة والأخرى بجانب سبابته وطرف إبهامه :

- لايكن هذا على رجل إن فلحت يابن أمك .

أتقدم شارداً وثقيلاً نحو غرفة ما فى بطن الجبل ، أرفع الوشاح الحريرى عن وجهها الجميل الفتان شيئاً فشيئاً ، أطيل إليها النظر ، أتأمل ملامحها الجامدة كالحجر الصوان ، وجه

عفراء يُفجعنا ، وخطوط النار المنبعثة من المسرجة الزيتية ترتعش على قسمات وجهها الغليظة السوداء ، وخلال تفاريج أسنانها الناصعة البياض ، وضحكة خشنة لعينة ذات صدى عميق ؛ أتتبعث منها أم ممن لست أدرى ، تمد يدها بالسراج الوئيد نحوى ، يتبدى الفراش الزئبقى الوثير غائصاً وراء ستائر وردية شفافة ولكأنما هى هالات مرسلة من سقف السماء إلى الأرض الحجرية، وصوتها الشيطانى يدغدغ أوصالى ، ويكاد يُسقطنا معاً فى قراره السحيق ، حيث يمكن أن تنطفئ نيران العشق والجوى .

- كم لهاتين اليدين السمراوين اللتين بهما استدعيتها من أجلك لحماً ودماً .

نغزات شيطانية لاتقاوم : «أن هيا» ، كلاكما فى محراب الحب، هاقد حانت لحظتك الذهبية التى كنت تحلم بها دوماً أيها الفارس المقدام ، هيا اتل ترانيم العشق والغزل ، وتخل عن صمتك الغريب ، هيا !!.

تتقدم نحوها ، تجعلها جسداً عارياً من جُمان ، وقلبى يعج عجيجاً خرافياً فى سويداء نفسى الملتهبة ، ويكاد يفط من حلقى، أصرخ فيها بحدة ، أهوى جاثياً على ركبتي إلى الأرض ، أدفن وجهى بين كفي يدي متشنجاً ، مرتعداً ، تنهرنى ، لايعجبها الحال، وجهها المكظوم يزداد سواداً على سواده ، تلقى بالمسرجة الزيتية المشتعلة إلى الفراش الزئبقى ، تنصرف باصقة ساخطة :

- يالك من عاجز عنين .

العالم كله أمامى ولا أراه ، يصرخ ولا أسمعه ، اليوم خطبتها لفلان ابن علان باشا العلانى ، القصة القديمة تقول أن قيساً قد سقط صريعاً على قبر محبوبته قائلاً بخضوع المتبتلين :

- لبيكِ ليلى

بالروح والجسم

نحن فى الدنيا وإن لم ترنا ولم

تمت ليلى ولا المجنون مات [٣].

راح يلف ويدور حوالين نفسه كالمذبوح ، يصرخ بجنون ، وصوت عفراء من الخفاء يظاهره ويمنيه بالرجعى الوردية :

- اليوم ، الساعة ، اللحظة ، سوف تعلقون الزينات السوداء، وتشعلون شموع الموت الأبدى ، وتسكرون للصباح حتى الثمالة من نهر الدموع الدموى ، دمى : «حبيبتى الملائكية ذات الطلعة البهية، عندما يصلك خطابى هذا أكون قد أودعت حياتى كلها بمحض إرادتك وإرادة العالم الهمجى بين يدي عزرائيل»

البائس المسكين

« قيس عاشقك المجنون»

●●●

شبح أشقر يتراءى لها من وراء زجاج النافذة فى الهزيع الأخير من الليل ، باقات من ورود التهنئة متناثرة هنا وهناك على الأرض ، وبجوار الفراش الحريرى ، يمتد صراخها حتى الصباح ، شعرها السائب الهائش ، نهداها الضامران يكشف عنهما الفستان الأبيض المشقوق ، تغطيه بقعة من الشربات الأحمر القانى كدم الغزال ، عيناها الذابلتان ، بشرتها الشاحبة ، ودبيب الموت يسرى فى الجسد الناحل خلال العروق المزرقة النافرة ، يتراقص فوق جذع الشجرة العالية الكائنة أمام نافذتها الزجاجية ، يهوى ، دعوات الأم ، ولعنات الأب ، وحسرات الخطيب الناقم الذى كان يمنى نفسه بليلة متعة جنونية :

- أعين مشفقة وأخرى شامتة ، أَهُم كل ديدنك ياليلاى البتول ؟! ، يالسخرية القدر .

وتنادت حدآت القبور ، ونعقت البوم فى البيوت الخربة كما لم تنعق من قبل ، وارتفع الشاهد على القبر التعيس :

- أيها الشيطان الأسود ارحل عن مدينتى البيضاء .

(١) قالتها الإلهة أثينا لـ «جينون»أى هيرا عندما خرجت الإلهة أفروديت من زبد البحر كما فى الميثولوجيا الإغريقية .

(٢) جبل تُباد الشهير والذى دارت عليه أحداث أشهر قصة عشق فى التاريخ العربى «قيس وليلى».

(٣) البيتان من «مجنون ليلى» لأمير الشعراء أحمد شوقى بك .